

تبدو أهمية الرواية التاريخية من خلال الظروف التي ظهرت فيها هذه الرواية في العالم العربي، «فقد ظهرت مع بدايات القرن العشرين، حيث كانت عملية استنبات الرواية بوصفها جنسا أدبيا، تشهد محاولات عديدة تسعى إلى ترسيخ جذوره وتطويرة بما يتلاءم مع الذوق العربي سواء من خلال الترجمة أو التعريب أو الإنشاء (...) وأتصور أن الرواية التعليمية التي اتكأت على التاريخ لم تخافت بغايتها وأهدافها، فقد أعلن جرجي زيدان -صراحة- أن الغاية من وراء قصصه التاريخي، هي تعليم التاريخ، من خلال أسلوب شائق وجذاب حتى يتغلب على جفاف المادة وجهامة المعلومات التي يقدمها للقراء»¹.

وعلى الرغم من وجود محاولات سابقة لكتابة الرواية التاريخية فإن جرجي زيدان يعتبر الرائد الحقيقي لهذا الفن بالنظر إلى رغبته في تعليم التاريخ العربي والإسلامي للقراء ومحدودي الثقافة، والعدد الكبير الذي أنتجه من الروايات التاريخية (حوالي 23 رواية). وقد حاول جرجي زيدان في رواياته هذه التوفيق بين الشكل الغربي وبين أخبار المؤرخين ورواة الأخبار في التاريخ العربي - تلك الأخبار التي كانت تجمع بين المادة التاريخية المروية في أخبار وبين مادة أدبية لا تقل في أهميتها عن المادة التاريخية - وكانت رواياته ذات صيغة واحدة، «فالمؤلف يختار موضوعات وشخصيات ذات شهرة تاريخية، ويقيم من خلالها أحداث روايته التي تكون مقيدة بالأماكن التاريخية وبالأحداث والشخصيات التاريخية ذلك، وذلك في إطار موضوع غرامي تقف فيه العوائق بين العاشقين، ثم تزول ويجتمع الشمل مع اقتراب الموضوع التاريخي من نهايته. وجرجي زيدان في موضوعاته الغرامية هذه قريب إلى حد كبير من منهج القصص الشعبي المعتمد على المغامرات الخيالية التي تبدأ بلا مقدمات ولا تلبث أن تعترضها الصعاب والعراقيل ثم ينتصر المحبان في النهاية ويتلاقيان»².

وإن كان زيدان يتوخى تعليم التاريخ لمجرد تعليمه فإن تابعيه قد اختلفوا في نظرته إلى المادة التاريخية، حيث اتخذ البعض من الرواية التاريخية وسيلة لتعليم اللغة العربية وأساليبها، وخير من يمثلهم علي الجارم، و«وقد كان الاحتفاء بنصاعة البيان، ورشاقة التعبير، هو السمة الغالبة على الروايات التي خلفها علي الجارم حيث تضاعف الجانب الفني فيها، وكاد يختفي، وبدأت الروايات عرضاً أدبياً لحياة بعض الشخصيات أمثال أبي الطيب المتنبي في روايتي "الشاعر الطموح" و"خاتمة المطاف" والمعتمد بن عباد في "شاعر ملك"، وأبي فراس الحمداني في "فارس بني حمدان"، وابن زيدون في "هاتف من الأندلس"، والوليد بن يزيد بن عبد الملك في "مرح الوليد" وهكذا. ولعل شاعرية الجارم كانت باعثاً له، بالشعور أو اللاشعور، على اختيار هؤلاء الشعراء الذين يشاركونهم الانتماء لدوحة الشعر - موضوعاً لأكثر رواياته، وقد منحه ذلك فرصة تقديم بعض أشعارهم في لحظات إبداعها، أو في الظروف التي يمكن أن تكون مثيرة لها، حسبما يتصورها هو، ومن هنا ظهرت تلك الروايات مطعمة بأشعار أبطالها في مواضع كثيرة. ويمكن القول بعامة بأن أعمال الجارم في هذا المجال اتخذت شكل الرواية التاريخية فقط، دون جوهرها، فليس في أي منها محاولة لمعالجة الحاضر، أو تشخيصه من خلال الماضي، كما هو الشأن في الرواية التاريخية الفنية، وإنما انصرف هم الكاتب إلى التقنن في الأسلوب، وتخير المفردات، والجري وراء

¹ حلمي محمد القاعود: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث؛ دراسة تطبيقية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، 2008، ص15.

² السعيد الورقي: اتجاهات الرواية العربية المعاصرة، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1998، ص23.

الصور حتى انطمست ملامح شخصياته ولم يعد لها كيان مستقل في ذهن القارئ، بل ذابت جميعها في شخص المؤلف، وأصبح هو المتحدث باسمها، المعبر عن أفكارها وخواطرها، في كل المواقف»³.

واتخذ كتاب آخرون من التاريخ ملجأ للتعبير عن وعي ديني وقومي ووطني، «يدفعهم دفعا إلى احتضان الفترات التاريخية المشابهة لفترات المعاصرة التي يعيشونها، واستدعاء العناصر التراثية التي توقد جمره الأمل والتوثب في نفوس المعاصرين اتجاه واقع مثقل بالاحباط والتشاؤم، أو تسوده الهزائم والألام»⁴.

يؤكد الباحث عبد المحسن بدر في كتابه عن تطور الرواية العربية في مصر أن الرواية التاريخية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية تختلف اختلافا جوهريا عن الرواية التاريخية كما ظهرت عند جرجي زيدان والتي كانت تهدف إلى مجرد تعليم التاريخ كما تختلف عن الرواية التاريخية التي تهدف إلى التسلية، لأنها كانت تعبيرا عن حماس قومي يهدف إلى بعث أمجاد الماضي وبطولاته، ويستلهم من هذا التاريخ المعاني التي تدفع إلى طريق المستقبل⁵.

تجدر الإشارة إلى أن الرواية التاريخية لا تعنى بتقديم التاريخ للقارئ بالدرجة الأولى، لأن وثائق التاريخ كفيلة بأداء هذه المهمة، وإنما تكمن قيمتها في مدى براعة الكاتب في استغلال الحدث التاريخي، واعتماده إطارا ينطلق منه لمعالجة قضية حية من قضايا مجتمعه الراهنة، وفي هذا الصدد يشير الناقد المجري جورج لوكاتش إلى أن " التاريخ عند ولتر سكوت يعنى بطريقة أساسية ومباشرة حظوظ الناس، فاهتمامه الأول ينصب على حياة الناس في الفترة التاريخية التي يتناولها، وما عليه إلا أن يجسد القدر الشائع في شخصية تاريخية ما، ويبين كيف أن مثل هذه الأحداث ترتبط بمشكلات الحاضر، فالعملية إذن عملية متماسكة عضويا. إنه يكتب من الناس، ولا يكتب عنهم، إنه يكتب من تجاربهم وأرواحهم". كما يشير في موطن آخر إلى أن عظمة ولتر سكوت تتمثل في قدرته على منح نماذج الاجتماعية التاريخية تجسيدا إنسانيا حيا. على أن الروائي ملتزم في كل الحالات بالخط التاريخي العام، وخصائص العصر الذي يصوره، وملامحه وتقاليده، وعدم الخروج عليها أو تزيفها⁶.

لقد تنوعت مرجعيات الرواية التاريخية العربية، وامتدت من تاريخ مصر القديم إلى التاريخ الحديث، ومن تاريخ العرب قبل الإسلام إلى عصر المماليك، فكان من الروائيين من استمالته حقبة بعينها، أو شخصية من شخصيات الماضي، لدوافع فكرية ونفسية تختلف من واحد إلى آخر، «لكن انصراف معظمهم إلى التاريخ بعامة خلال الأربعينات بالذات وهي فترة الصراع العنيف بين القوى الوطنية والاستعمار البريطاني، يمكن تفسيره أحيانا بالرغبة في إحياء صفحة من أمجاد الماضي العريق، تستثير الهمم، وتنشد العزائم، وتبعث الأمل، ويمكن تفسيره في أحيان أخرى بالرغبة في الهرب من الحاضر ومشكلاته إلى الماضي، ويضاف إلى ذلك وجود المادة التاريخية، التي توفر على الكاتب كثيرا من جهد الخلق ومشقة الإبداع»⁷.

³ شفيع السيد: اتجاهات الرواية العربية، دار الفكر العربي، مصر، ط3، 1996، ص49.

⁴ حلمي محمد القاعود: الرواية التاريخية في أدبنا الحديث؛ دراسة تطبيقية، ص20.

⁵ انظر عبد الله خليفة: نجيب محفوظ؛ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، لبنان، الجزائر، ط1، 2007، ص18.

⁶ انظر شفيع السيد: اتجاهات الرواية العربية، ص28.

⁷ المرجع نفسه، ص51.